شخصية المنافق في القرآن الكريم

■■ المنافق - بوجه عام -
هو الإنسان الذي يُظهر غير ما يبطن
ويقول ما لا يعتقد
وما لا يفعـل .
وبالإجمـال . . .
يتظاهر
بما ليس فيه .
والمنـافق الكافر
هو من يظهر الإيمـان
ويبطن الكفـر ■■

شخصية المنافق . . .

شخصية المنافق مريضة ، منقسمة على نفسها ، فكأنه شخصيتان متصارعتان تعيشان في جسد واحد ، إحداهما تعبر عن نفسها خلال المظاهر الخارجية التي يراها ويسمعها الناس ؛ كالملابس والابتسامات والكلمات ، والأخرى تعبر عن نفسها بالمشاعر والاعتقادات الداخلية التي لا يطلع عليها أحد (إلاّ من شاكلها في النفاق) ؛ كمشاعر الحب والبغض ، واعتقادات الإيمان والكفر .

وهذا الصراع ينبع من أن المنافق ليس أميناً مع نفسه ولا مع الناس ؛ فهو يكذب على نفسه ليرضي الناس ، ويكذب على الناس ليخدعهم عن حقيقته . والواقع أنه لا يخدعهم ؛ لأن أعماله لا تصدق أقواله ، وهذا التعارض بين ما يقول وما يفعل **هو الذي يكشف للناس حقيقته مهما حاول إخفاءها** . فهو إذن يخدع نفسه ، ولا يخدع الناس ، فضلاً عن أن يخدع خالقه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وهذا مصداق قوله تعالى عن المنافقين :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .... ﴾ (البقرة : ١٠) .

أعـراض النفـاق :

كما أشار القرآن إلى السمات النفسية التي تعد أعراضاً لهذا المرض ، ومن أهمها :

١ - **خداع النفس** .
٢ - **الكذب** .
(كما في الآيتين السابقتين)

وهاتان السمتان مترابطتان ، فالذي يخدع نفسه ويخدع الناس لابد أن يكذب على نفسه وعلى الناس .

٣ - **الفسق** : وهو صفة عامة تشمل كثيراً من الصفات الأخرى للمنافق ؛ إذ أن الفاسق هو من يؤمن بالإسلام ويلتزم بمبادئه وبأحكام شريعته ظاهراً ، ولكنه يخالفها - عن علم وعمد - في أعماله . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (التوبة : ٦٧) .

وسنرى أمثلة لذلك من منافقي المدينة .

٤ - **الإفساد في الأرض مع ادعاء الإصلاح** : كما قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلَا إِنَّهُم هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة : ١١-١٢) .

٥ - **السفه واتهام المؤمنين به** : قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُم هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣) .

٦ - **التظاهر بالإيمان أمام المؤمنين** : فإذا انفردوا بمن هم على شاكلتهم (ولا سيما اليهود)[1] صرحوا بكفرهم وبأن تظاهرهم بالإيمان ما هو إلا استهزاءً :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ[1] قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (البقرة : ١٤) . ومن ثم فولاؤهم الحقيقي للكفار :

﴿ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النساء : ١٣٩) .

٧ - **مراءاة الناس بأعمال الخير والعبادة ، ولا سيما الصلاة** :

﴿ وَإِذا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ النَّاسَ ﴾ (النساء : ١٤٢) .

٨ - **كثرة الحلف للمؤمنين ليخدعوهم عن كفرهم** :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُم لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ (التوبة : ٥٦) ،

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ (التوبة : ٦٢) .

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ (المنافقون : ٢) .

٩ - **اختلاق الأعذار** : (والمنافق دائماً معذار !) ؛ ليتخلفوا عن المشاركة في بناء الجماعة المؤمنة والدفاع عنها ، ولا سيما عن طريق الجهاد والإنفاق . كما تخلفوا مثلاً عن غزوتي الأحزاب وتبوك ، ففي الأولى تخلفوا عن الدفاع عن المدينة :

﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾ (الأحزاب : ١٣) ، وفي الثانية تخلفوا عن الخروج مع المؤمنين ، وكانوا يحلفون لهم بالله :

﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة : ٤٢) .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨١) .

١٠ - **جمال الظاهر وخراب الباطن** :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (المنافقون : ٤) .

بقلم الدكتور :
أحمد عبد الحميد غـــراب

١١ ـ التآمر على المسلمين : شخصية المنافق بطبيعتها شخصية متآمرة .. يظهر غير ما يبطن ، يعمل في الظلام ، يثير الفتن والدسائس بين المسلمين ؛ ويستعين على ذلك بأساليب الاستخفاء والتبييت والتربص والتثبيط والفرقة :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (النساء : ١٠٨) ،

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ (التوبة : ٤٧) .

والصفات السابقة كلها تؤكد أن شخصية المنافق في أعماقها تموج بالغدر والخيانة ، ومما يزيد هذه الحقيقة تأكيداً العلامات التي نستدل بها على المنافق ، وهي التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ فقال : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان** » .

ومن الواضح أن الصفات السابقة تدل على مرض الشخصية وازدواجها كما تدل على شرِّيَّتها .

شخصيـــة انتهازيـــة . . .

وشخصية المنافق هي كذلك شخصية انتهازية ؛ لأن المنافق يلعب على حبلين ، ويحاول أن يُرضي فـريقين متصـارعين ، محاولاً خداعهما معاً ، والاستفادة منهما معاً ! وهذا الموقف المذبذب هو الذي اتخذه المنافقون في المدينة من الصراع الدائـر الرحى بين المؤمنين والكافرين ، فلا شك أن هوى المنافقين كان مع الكفار ، ولكنهم كانوا ينتظرون حتى تنجلي الموقعة : فإذا انتصر المسلمـون زعموا لهم أنهم أسهمـوا في انتصارهم وأنهم كانوا معهم ! وإذا انتصر الكفار زعموا لهم مثل ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُم فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النساء : ١٤١) .

وهذه الذبذبة النفعية غير الأخلاقية لا تقتصر على منافقي المدينة بل يتصف بها كل منافق :

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ (النساء : ١٤٣) .

صـــور النفـــاق . . .

وللنفـاق صور وأنـواع شتى لا تكاد تحصر ، ويمكن أن نميـز منها نـوعـين رئيسين :

(أ) **نفاق التملق** : وهو تقرب الإنسان إلى الناس (ولا سيما ذوي السلطة والثروة) بما يغضب الله ويرضيهم ، كمدحهم بما ليس فيهم ، والتذلل لهم ؛ لتحقيق هدف نفعي هو في الغالب جمع المال أو إحراز الجاه أو كلاهما (أي أن الدافعين الأساسيين لهذا النوع من النفاق هما الخوف والطمع) .

وهذا التملق وما يشبهـه من تصنع الإنسان للناس وتظاهره أمامهم بما ليس فيه وقوله لهم ما لا يعتقده ـ كل ذلك نفـاق يبغضه الإسلام :

« عن محمد بن زيد أنَّ ناساً قالوا لجده عبدالله بن عمر رضي الله عنهما :

إنَّا ندخل على سلاطيننا فنقول بخلاف ما نتكلم [به] إذا خرجنا من عندهم ، قال :

كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ » (رواه البخاري) .

يقول حجة الإسلام[٢] : « **اعلم أنَّ من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتودُّد إليهم ، والمراءاة لأجلهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لا محـالة إلى التسـاهل في العبادات والمراءاة بهـا ، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب** .

ولذلك شبَّه رسول الله ﷺ حب الشرف [الجاه] والمال وإفسادهما للدين بذئبـين ضاريين[٣] ، وقال عليه السلام **إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل**[٤] ؛ إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم ، وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خالٍ عنها ، وذلـك هو عـين النفاق » .

الأعمال تنبىء عن واقع الحال

وبالرغم من وجود المنافقين في مجتمع المدينة ، واستمرار مؤامراتهم ، واستفحال خطرهم في بعض الحالات ؛ فإنهم فشلوا تماماً في تحقيق هدفهم وهو القضاء على الجماعة المؤمنة في المدينة . ودائماً كان ينكشف نفاقهم ويبطل كيدهم ؛ لأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا ملتزمين بالإسلام ، والإسلام بطبيعته الواضحة المستقيمة التي ترفض الالتواء والعوج ، وبشموله لظاهر الإنسان وباطنه ، وبتربيته المسلمين على اليقظة لكل خطر والإعداد له ـ لا يسمح للنفاق أن يظل مستوراً لمدة طويلة .

فإذا كان المنافق يستطيع أن يخدع المؤمنين عن عقيدته ـ فإن أعماله وأخلاقه ومواقفه من المؤمنين لا تلبث أن تكشفه .

ففي باب العبادات مثلاً لابد أن ينكشف ؛ لأنه يتهرب من أداء الصلاة ولا يؤديها إلا كارهاً متكاسلاً ؛ لأنه يؤديها رياءً كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء : ١٤٢) .

وكذلك يتهرب من أداء الزكاة ولا يؤديها إلَّا كارهاً كالصلاة :

﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (التوبة : ٥٤) .

أما أخلاق المنافق فهي كذلك من أهم العلامات التي تدل المسلمين على نفاقه ، ومن تلك الأخلاق : الكذب وخلف الوعد وخيانة الأمانة كما وردت في حديث رسول الله ﷺ .

وقد ظهرت هذه الأخلاق كلها في نكث المنافقين في المدينة بوعودهم بأن يتصدقوا إذا أغناهم الله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُم مِن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة : ٧٥-٧٧) .

ومن أخلاق المنافق أنه فاسق ، ولذلك يدعو الناس إلى عكس ما يدعوهم إليـه الإسلام ، فيأمرهم بالمنكـر وينهاهم عن المعروف .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ

﴿ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (التوبة : ٦٧) .

وهكذا تنكشف أضغان المنافقين كما قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ (محمد : ٢٩) .

معاملـــة المنافقين . . .

وبالرغم من كل هذا فقد اختط الإسلام خطة حكيمة في معاملة المنافقين تجمع بين التسامح والحذر .

أما التسامح فواضح في معاملة الإسلام للمنافقين في أمور الدنيا معاملة المسلمين ؛ وذلك بحسب ظاهرهم . وهذه المعاملة تفتح لهم باب التوبة على مصراعيه ليطهروا باطنهم من نجاسة الكفر :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُم لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّـهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (النساء : ١٤٥-١٤٦) .

وأما الحذر فقد نبه الإسلام المسلمين إلى خطرهم ، وحذَّرهم من الركون إليهم ، أو الثقة بهم ، أو التخلق بأخلاقهم ، كما دلَّهم على أهم السِّمات التي يتعرفون بها على المنافق فيتقون شره ، وقد قال بعض الحكماء : « **ملابسة المنافق بلا تيقظ كملاقاة العدو بلا سلاح**[٥] » .

ولذلك يربي الإسلام شخصية المسلم على الاستقامة واستواء السر والعلن ، وأن يكون ظاهر المسلم تعبيراً أميناً عن باطنه ؛ فيكون مؤمن اللسان والقلب ، يقول الكلمة الطيبة ويعمل العمل الصالح ، ينطق بكلمة الشهادة ويؤمن بها ويحياها ويموت عليها .

عـــلاج النفـــاق !!!

(أ) **نفـــاق التملق** :

إن الدافعين الأساسيين للتملق هما : الخوف والطمع .

والتملق مرض نفسي واجتماعي ينتشر بين المسلمين كالوباء في عصور الانحطاط ، وهي العصور التي يبتعدون فيها عن دينهم ، ويضعف اعتزازهم به ؛ وذلك لأنه يضعف إيمانهم بالله ، فيضعف خوفهم منه ورجاؤهم فيه ، بينما يقوى إيمانهم بالحياة الدنيا ويشتد حرصهم عليها ، ومن ثم تزداد أهمية الناس عندهم ؛ فيزداد الخوف منهم والطمع بما في أيديهم ، ولا سيما في المال والجاه .

ونجد ظاهرة التملق واضحة في تاريخ الأدب والتاريخ السياسي والتربية المعاصرة .

ففي تاريخ الأدب نجدها واضحة في التكسب بالشعر عن طريق المدح الكاذب للخلفاء والأمراء وذوي المال والجاه .

وفي التاريخ السياسي نجدها واضحة في العلاقات بين الحاكم والرعية ؛ حيث تعبر الرعية عن احترامها للحاكم بأساليب لا تتفق مع المفهوم الإسلامي للعلاقة بين مستخلف مسؤول عن رعيته ، ورعيَّة مسؤولة عن اختياره وعزله - وإنما هي أقرب إلى العلاقة بين السيد والعبد : السيد المطلق التصرف الذي لا يُسأل عما يفعل ، والعبد الذي لا يملك إلا الرضوخ والخضوع ، بل إن المعروف في بعض المجتمعات الإسلامية في غرب أفريقيا أن تحيي الرعية أميرها بما يشبه الركوع والسجود !!

وفي التربية المعاصرة نجد أطفال المسلمين يُنَشَّأون غالباً على الخوف من آبائهم ، فلا يجرؤون على التعبير عن أنفسهم تعبيراً صريحاً مستقيماً ، دون لف أو دوران .

وهذه التربية القائمة على التخويف تؤدي إلى عواقب وخيمة في الحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين .

ففي الحياة الاجتماعية ينتشر تملق الضعفاء للأقوياء ، والمرؤوسين للرؤساء ، ويترتب على هذا ألا يقدر المسلم لجهده وكفاءته وإسهامه في خدمة الجماعة ، بل لتملقه أمراءً معدودين من « **ذوي الجاه** » و « **ذوي النفوذ** » .. ونتيجة لذلك يتولى المناصب غالباً من لا يصلحون لها ، بينما تُبْعَد أو تبتعد العقول الكبيرة والكفاءات العالية فيفقد المجتمع خير عناصره ، وبذلك يضعف ويموت ببطء ؛ لأنه يتآكل من داخله بانتشار الفساد وتولية المفسدين ، كما تتآكل الشجرة بالسوس ينخرها من داخلها .

أما في الحياة السياسية فهناك علاقة وثيقة بين النفاق والاستبداد السياسي ، ومن أهم الظواهر المرتبطة بطغيان بعض الحكام المسلمين اليوم إبعادُ ذوي الخلق والكفاءة والإخلاص في النصيحة ، وتقريب المنافقين الذين يجيدون المدح الكاذب والتملق الرخيص .

ولتصحيح هذا الموقف يجب أن نبدأ من البيت ؛ فنربي أولادنا (**بنين وبنات**) على أدب الإسلام ، وهو يقضي بالجهر بالحق وإبداء الرأي في جو من الشورى وهي من أعظم وأهم قواعد السلوك في الحياة الإسلامية بكل مستوياتها : من البيت إلى مكان العمل إلى إدارة الدولة ، فمن أهم صفات المؤمنين في القرآن أن أمورهم تقرر بالشورى :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨) .

وفي موعظة لقمان لابنه نراه ينصحه بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مع ما يقتضيه ذلك من الصراحة والجرأة في الحق . وكذلك ينصحه بأن يكون باراً بوالديه ، وفي الوقت نفسه أن يكون له من استقلال الفكر وشجاعة الرأي ما يمكنه من أن لا يطيعهما إن جاهداه على شرك (لقمان : ١٤، ١٧) .

بل إن الله تعالى يأمر المؤمنين جميعاً أن يلتزموا الحق والعدل ولو أدَّىٰ ذلك إلى أن يتخذوا مواقف ضد أنفسهم ووالديهم وأقاربهم :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء : ١٣٥) .

وهناك درس تربوي عظيم كذلك في قصة عمر مع الأولاد ، فقد فرُّوا من طريقه إلاَّ ولداً واحداً ، وقف مطمئناً يبين للخليفة أنه لم ير سبباً يدعو إلى فراره ؛ فليست الطريق ضيقة فيوسعها له ، ولم يرتكب جريمة فيخافه .

وما لم نُرَبِّ أولادنا ليكونوا مثل هذا الولد

■ نفاق التملق في الحياة السياسية يؤدي إلى أن يتولى المناصب غالباً من لا يصلحون لها بينما تبعد العقول الكبيرة والكفاءات العالية فيموت المجتمع ببطء . .

فلن يكون لنا حاكم مثل **عمر** رضي الله عنه .

ومن الواضح أنَّ إبداء الرأي لا يستلزم سوء الأدب ؛ فالإسلام يربي المسلم على أن يجهر بالحق في أدب ؛ لأن الله ﴿ **لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ...** ﴾ (النساء : ١٤٨) .

ولذلك أمر الله تعالى الإنسان حين يخالف والديه ولا يطيعهما في المعصية أن يستمر في معاملتهما بالإحسان ، ومصاحبتهما بالمعروف (لقمان : ١٤) .

وكذلك نصح لقمان ابنه بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ألَّا يُصعِّر خدَّه للناس أي لا يكلمهم أو يعاملهم بوقاحة (لقمان : ١٨) .

هذا عن الخوف ...

أما الطمع فمتعلق بحب المال والشهرة ، وحب التملك للماديات والتمتع بها والاستكثار منها والتفاخر بها ، وطلب الجاه والمنزلة بين الناس عن طريقها . وهذا يدل على حرص شديد على أعراض الدنيا كغاية في ذاتها ، لا كوسيلة إلى ابتغاء رضوان الله عن طريق الأعمال الصالحة .

وهذا التيار واضح أيضاً في البيت المسلم والمجتمع المسلم ؛ حيث نرى الأولاد يقلدون والديهم في تمجيد الماديات والاستكثار منها والتفاخر بها أمام الناس ، وتقويم الإنسان المسلم بقدر ما يملك منها ، ومن المال الذي يشتريها ، والجاه الذي يساعد على اقتنائها .

وتحت تأثير الحضارة المادية المعاصرة ، وتأثير وسائل الإعلام التي تُعَمْلِقُ الأقزام ، وتتحكم إلى حد كبير في شهرة الأشخاص (**ومع الأشخاص الأفكار والمبادىء والمذاهب**) ، وغياب القيم الإسلامية عن البيت والمدرسة والمجتمع ، يزداد هذا التيار قوَّةً بين المسلمين يوماً بعد يوم .

ولا يصد هذا التيار إلَّا تيار إسلامي اقوى منه ، يصحح فهم المسلم للمال والشهرة والتمتع بالطيبات والعلاقة بالناس ، ومن ثم يصحح موقفه من الحياة والأحياء .

ولا يتم هذا التصحيح إلا بأمرين :

١ ـ حسن صلة المسلم بالله .

٢ ـ اتخاذه هدى الله وحده مرشداً له في تصحيح فهمه وسلوكه .

فإذا حسنت صلة العبد بربِّه أيقن أن ضرَّه ونفعه ، ورزقه وأجله ، وحياته وموته ، ومصيره ومصير الناس جميعاً بيد الله وحده :

﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ (الأنعام : ١٨) .

فلا يكون خوف إلا منه ، ولا طمع إلا فيه ، وبذلك يتحرر المسلم تحرراً حقيقياً من الخوف من الناس ومن الطمع مما في أيديهم من مال أو جاه ، ولا يعود يلهث وراءهم كالكلب ، بل يجد في السعي وشرف العمل والكسب عِزَّةً تغنيه عن مزلَّة التملق ، ويقنع من المال بما يكفيه الضرورات ويغنيه عن سؤال الناس ، وكذلك لا يسعى وراء شهرة لشخصه ، بل يسعى وراء إذاعة هدى الله ونشر نوره بين الناس ، فذلك خير وأبقى .

(ب) نفاق الكفر :

يصعب جداً علاج هذا النفاق ؛ لأنه كما رأينا من تحليله مرضٌ نفسي خبيث ، وهو كذلك داء اجتماعي عضال .

ولعل أفضل وسيلة لعلاجه هي وجود المجتمع المسلم الملتزم بالإسلام ، وذلك لأن الخطوة الأولى الطبيعية والضرورية لعلاج أي مرض هي اكتشافه . ولا يسهل اكتشاف النفاق في المجتمع الكافر ؛ لأن النفاق نوع من ضلال الكفر ، ولا يكتشف الضلال بالضلال .. بل بالهدى . فجراثيم النفاق تعيش وتتكاثر في الظلام ، ولا يمكن اكتشافها إلا إذا سُلِّطت عليها أضواء الهدى .

وقد رأينا أن المنافق يمكن ، بل ويسهل ، اكتشافه في المجتمع المسلم ؛ لأن أعماله وأخلاقه ومواقفه جميعاً تتعارض مع الإسلام .

وفي المجتمع المسلم تتحدد الأفعال الإنسانية بمقاييس الهدى والضلال ، وبمقتضى هذه المقاييس تتحدد الفروق بين الناس وبها يتمايزون .

أما في المجتمع الضال (**أي الكافر وغير الملتزم بالإسلام**) فتتميع هذه الفروق ؛ لانعدام تلك المقاييس أو اضطرابها ، وتنشأ فروق أخرى وفقاً لمقاييس مادية كافرة ؛ كالفروق في الدخل أو اللون أو الطبقة الاجتماعية أو النعرة القومية أو العنصرية ، وبمقتضى هذه المقاييس يفترق الناس ويتمايزون .

ومعاملة الإسلام للمنافقين حسب ظاهرهم هي كذلك نوعٌ من العلاج الحكيم ؛ فهذه المعاملة لا تستهين بخطر النفاق ولا تُعمل الإعداد له ، ولكنها تفرق بين المجاهر بالكفر والعداوة والمستخفي بهما . فلا يجوز في ميزان الحكمة والعدالة أن يسوَّى بين المجرم المجاهر بجريمته ، المتحدي علناً لسلطة القانون والدولة وسلامة المجتمع ، والمجرم المستخفي الذي ينكر جريمته ويتبرأ منها إذا ووجه بها . فالمستخفي بجريمته ـ رغم خطورتها ـ شره محدود ، أما المجاهر فشره مستطير إلى المجتمع كله ، ولذلك أجمع الفقهاء ـ مثلاً ـ على تشديد عقوبة المجاهر بالإفطار في رمضان .

هذه المعاملة تتيح للمنافق أن يراجع نفسه ، وتفتح له أبواب العودة ـ في هدوء ـ إلى الإيمان ظاهراً وباطناً دون أن يفقد ماء وجهه .

هـــــوامش :

(١) راجع سيد قطب : في ظلال القرآن ط . سادسة ١/ ٣٠ ، حيث يرجح من سياق السورة وسياق السيرة ان الإشارة إلى « شياطينهم » تعني اليهود ، وقد كان اليهود ـ حتى إجلائهم عن المدينة ـ الحلفاء الطبيعيين للمنافقين . ويتضح هذا من مواقف كثيرة منها : انه لما امر الرسول ﷺ يهود بني النضير بالخروج من المدينة نتيجة لمحاولتهم قتله ﷺ غدراً ـ اغراهم المنافقون بالبقاء ووعدوهم العون : ﴿ الم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احداً ابداً ولئن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ (الحشر : ١١-١٢) ، وراجع محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ﷺ ج٢ ص١٧٦ ـ ٢١٦ .

(٢) الإحياء : ط ثانية القاهرة (دار الفكر) ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ١٠/ ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٣) نص الحديث : « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأسرع إفساداً من حب الشرف والمال في دين الرجل المسلم » (الإحياء ١٠/ ٨٤) .

(٤) نص الحديث : « حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » (المرجع السابق : الصفحة نفسها) .

(٥) العامري : السعادة والإسعاد ص١٤٧ .